العمران العربي

﴿ وصف الجامع الاموي ﴾ (*)

هو من أشهر جوامع الاسلام حسنا واتقان بناء وغرابة صنعة واحتفال تنميق وتزيين وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه . ومن عجيب شأنه انه لا تنسج به العنكبوت ولا تدخله ولا تلم به الطير المعروفة بالخطاف . انتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك (رح) ووجه الى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره بإشخاص اثني عشر ألفا من الصناع من بلاده وقدم اليه بالوعيد في ذلك ان توقف عنه فامتثل أمره مذعنا بعد مراسلة جرت بينهما في ذلك على ما هو مذكور في كتب التواريخ فشرع في بنائه و بلغت الغاية في التأنق فيه وانزلت جدره كلها بفصوص من الذهب المعروف بالفسيفساء وخلطت بها انواع من الاصبغة الغريبة فمثلت اشجارا وفرعت اغصانا منظومة بالفصوص ببدائع من الصنعة الانيقة المعجزة وصف كل واصف فجاء يغشي العيون ويضارع بصيصها وكان مبلغ النفقة فيه حسبما ذكره ابن العلي الاسدي في جزء وضعه في ذكر بنائه مئة صندوق في كل صندوق ثمانية وعشرين ألف دينار ومئتا ألف دينار فكان مبلغ الجميع احدى عشر ألف ألف دينار ومئتا ألف دينار . والوليد هذا هو الذي أخذ نصف الكنيسة الباقية منه في ايدي النصارى وأدخلها فيه لانه كان قسمين قسما للمسلمين وهو الشرقي وقسما للنصارى وهو الغربي لان ابا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه دخل البلد في الجهة الغربية فانتهى الى نصف الكنيسة وقد وقع الصلح بينه وبين النصارى ودخل خالد بن الوليد رضي الله عنه عنوة من الجانب الشرقي

(*) نقلا عن رحلة ابن جبير من وصفه للجامع الاموي اذ زاره في سنة ٥٨٠ .

وانتهى الى النصف الثاني وهو الشرقي فاحتازه المسلمون وصيروه مسجداً وهي النصف المصاوع عليه وهو الغربي كنيسة بأيدي النصارى الى ان عوضهم منه الوليد فابوا ذلك فانتزعه منهم قهرا وطلع لهدمه بنفسه وكانوا يزعمون ان الذي يهدم كنيستهم يجن فبادر وقال أنا أول من يجن في الله وبدأ الهدم بيده فبادر المسلمون واكملوا هدمه

ذرعه في الطول من الشرق الى الغرب مئتا خطوة وهما ثلاثمئة ذراع وذرعه في السعة من القبلة الى الجوف مئة خطوة وخمس وثلاثون خطوة وهي مئتا ذراع فيكون تكسيره من المراجم الغربية اربعة وعشرون مرجعا وهو تكسير مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم غير ان مسجد رسول الله صلى الله عليه من القبلة الى الشمال . وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاثة مستطيلة من الشرق الى الغرب سعة كل بلاط منها ثمان عشرة خطوة والخطوة ذراع ونصف وقد قامت على ثمانية وستين عمودا منها اربعة وخمسون سارية وثماني أرجل جصية تتخللها واثنتان مرخمة ملصقة منها في الجدار الذي يلي الصحن وأربع أرجل مرخمة أبدع ترخيم مرصعة بفصوص من الرخام ملونة قد نقلت خواتيم وصورت محاريب واشكالا غريبة قائمة في البلاط الاوسط قبل قبة الرصاص مع القبة التي تلي المحراب سعة كل رجل منها ستة عشر شبرا وطولها عشرون شبرا وبين كل رجل ورجل في الطول سبع عشرة خطوة وفي العرض ثلاث عشرة خطوة فيكون دور كل رجل منها اثنين وسبعين شبرا . ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهاته الشرقية والغربية والشمالية سعته عشرة خطى وعدد قوائمه سبع وأربعون منها اربع عشرة رجلا من الجص وسائرها سواري فيكون سعة الصحن حاشا المسقف القبلي والشمالي مئة ذراع . وسقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص

واعظم ما في هذا الجامع المبارك قبة الرصاص المتصلة بالمحراب وسطه سامية في الهواء عظيمة الاستدارة قد استقل بها هيكل عظيم هو غارب لها يتصل من المحراب الى الصحن وتحته ثلاث قباب قبة تتصل بالجدار الذي الى الصحن وقبة تتصل بالمحراب وقبة تحت قبة الرصاص بينها . والقبة الرصاصية قد أغصت الهواء وسطه فاذا استقبلها البصر تمت منظرا رائعا ومرأى هائلا يشبهه بشر طائر كأن القبة رأسه والغارب جؤجؤه ونصف جدار البلاط

على يمين نصف الثاني على شمال جناحا موسعة هذا الغراب من جهة الصحن ثلاثون خطوة فهم يعرفون هذا الموضع من الجامع بالنسر لهذا التشبيه الواقع عليه . ومن اي جهة استقبلت البلد ترى القبة في الهواء منيفة على كل علو كأنها معلقة من الجو . والجامع مائل الى الجهة الشمالية من البلد وعدد شمسياته الزجاجية المذهبة الملونة اربع وسبعون منها في القبة التي تحت قبة الرصاص عشر وفي القبة المتصلة بالمحراب مع مايليها من الجدر أربع عشرة شمسية وفي طول الجدار عن يمين المحراب ويساره اربع وأربعون وفي القبة المتصلة بجدار الصحن ست وفي ظهر الجدار الى الصحن سبع وأربعون شمسية

وفي الجامع ثلاث مقصورات مقصورة الصحابة رضي الله عنهم وهي أول مقصورة وضعت في الاسلام وضعها معاوية بن أبي سفيان (رض) وبازاء محرابها عن يمين مستقبل القبة باب حديد كان يدخل معاوية (رض) الى المقصورة منه الى المحراب وبازاء محرابها لجهة اليمين مصلى أبي الدرداء (رض) وخلفها كانت دار معاوية (رض) وهي اليوم سماط عظيم للصفارين يتصل بطول جدار الجامع القبلي ولا سماط أحسن منظرا منه ولا اكبر طولا وعرضا . وخلف هذا السماط على مقربة منه دار الخيل برسمه وهي اليوم مسكونة وفيها مواضع للكادين وطول المقصورة الصحابية المذكورة اربعة وأربعون شبرا وعرضها نصف الطول ويليها لجهة الغرب في وسط الجامع المقصورة التي احدثت عند إضافة النصف المتخذ كنيسة الى الجامع حسبما تقدم ذكره وفيها منبر الخطبة ومحراب الصلاة وكانت مقصورة الصحابة أولا في نصف الخط الاسلامي من الكنيسة وكان الجدار حيث اعيد المحراب في المقصورة المحدثة فلما أعيدت الكنيسة كلها مسجدا صارت مقصورة الصحابة طرفا في الجانب الشرقي وأحدثت المقصورة الاخرى وسطا حيث كان جدار الجامع قبل الاتصال وهذه المقصورة المحدثة اكبر من الصحابية . وبالجانب الغربي بازاء الجدار مقصورة اخرى هي برسم الحنفية يجتمعون فيها للتدريس وبها يصلون وبازائها زاوية محدقة بالاعواد المشرجية كأنها مقصورة صغيرة وبالجانب الشرقي في زاوية أخرى على هذه الصفة هي كالمقصورة كان وضعها للصلاة فيها

أحد امراء الدولة التركية وهي لاصقة بالجدار الشرقي . وبالجامع عدة زوايا على هذا الترتيب يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس وهي من جملة مرافق الطلبة

وفي الجدار المتصل بالصحن المحيط بالبلاطات القبلية عشرون بابا متصلا بطول الجدار قدمنا انها قسي جصية مخرمة كلها على هيئة الشمسيات فتحصر العين من اتصالها اجمل منظر واحسنه

والبلاط المتصل بالصحن المحيط بالبلاطات من ثلاث جهات على اعمدة وعلى تلك الاعمدة ابواب مقوسة تقابلها أعمدة مثلها تطيف بالصحن كله . ومنظر هذا الصحن من اجمل المناظر واحسنها وفيه مجتمع أهل البلد وهو متنزههم ومتنزههم كل عشية تراهم فيه ذاهبين وراجعين من شرق الى غرب من باب جيرون الى باب البريد فمنهم من يتحدث مع صاحبه ومنهم من يقرأ لا يزالون على هذه الحال من ذهاب ورجوع الى اقضاء صلاة العشاء الآخرة ثم ينصرفون . ولبعضهم بالغداة مثل ذلك . واكثر الاحتفال العامر بالعشي فيخيل لبصر ذلك انها ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم لا يزالون على ذلك كل يوم وأهل البطالة من الناس يسوقهم حراسين

والجامع ثلاث صوامع واحدة في الجانب الغربي وهي كالبرج المشيد تحتوي على مساكن متسعة وزوايا فسيحة رائعة كلها الى اخلاق يسكنها اقوام من الغرباء اهل الخير . والبيت الاعلى منها كان مسكف ابي حامد الغزالي رحمه الله ويسكنه اليوم الفقيه الزاهد ابو عبد الله بن سعيد من اهل قلعة يحصب المشهورة بلم وهو قريب لبني سعيد المشهورين بالدنيا وخدمتها . وثانية بالجانب الغربي على هذه الصفة وثالثة بالجانب الشمالي على الباب المعروف بباب الناطفيين

وفي الصحن ثلاث قباب احداها في الجانب الغربي منه وهي اكبرها وهي قائمة على ثمانية اعمدة من الرخام مستطيلة كالبرج مزخرفة بالفصوص والاعمدة الملونة كأنها الروضة حسنا وعليها قبة رصاص كأنها التنور العظيم الاستدارة يقال انها كانت مخزنا لمال الجامع وله مال عظيم من غرامات ومستغلات تضيف على

ما ذكرنا على الثمانية آلاف دينار صورية في السنة وهي خمسة عشر الف درهم مؤمنية أو نحوها . وفية أخرى صغيرة في وسط الصحن مجوفة مثمنة من رخام قد ألصق أبدع إلصاق قائمة على اربعة اعمدة صغار من الرخام وفتحها شباك حديد مستدير وفي وسطه انبوب من الصفر يمج الماء الى علو فيرتفع ويهتي كأنه قضيب من لجين يشره الناس لوضع افواههم فيه للشرب استظرافا واستحسانا ويسمونه قفص الماء . والقبة الثالثة في الجانب الشرقي قائمة على ثمانية اعمدة على هيئة القبة الكبيرة لكن اصغر منها

وفي الجانب الشمالي من الصحن باب كبير يفضي الى مسجد كبير في وسطه صحن قد استدار فيه صهريج من الرخام كبير يجري الماء فيه دائما من صفحة رخام ابيض مثمنة قد قامت وسط الصهريج على رأس عمود مثقوب يصعد الماء منه اليها ويعرف هذا الموضع بالكلاسة ويصلي فيه اليوم صاحبنا الفقيه الزاهد المحدث ابو جعفر الفكي القرطبي ويتزاحم الناس على الصلاة فيه خلفه التماسا لبركته واستماعا لحسن صوته

وفي الجانب الشرقي من الصحن باب يفضي الى مسجد من أحسن المساجد وابدعها وضعا وأجلها بناء يذكر الشيعة انه مشهد لعلي بن أبي طالب (رض) وهذا من أغرب معتقداتهم . ومن العجيب انه يقابله في الجهة الغربية في زاوية البلاط الشمالي من الصحن موضع هو ملتقى آخر البلاط الشمالي مع اول البلاط الغربي مجلل بستر في اعلاه وامامه ستر ايضا مسدل يزعم اكثر الناس انه موضع لعائشة (رض) وانها كانت تسمع الحديث فيه وعائشة (رض) في دخول دمشق كعلي (رض) لكن لهم في علي (رض) مندوحة من القول وذلك انهم يزعمون انه روي في المنام مصليا في ذلك الموضع فبنت الشيعة فيه مسجدا واما الموضع المنسوب لعائشة (رض) فلا مندوحة فيه وانما ذكرناه لشهرته في الجامع

وكان هذا الجامع المبارك ظاهرا و باطنا منزلا كله بالفصوص المذهبة مزخرفا بأبدع زخاريف البناء المعجز الصنعة فادركه الحريق مرتين فتهدم وجدد وذهب اكثر رخامه فاستحال رونقه فأسلم مافيه اليوم قبله مع الثلاث قباب المتصلة بها .

وغرابه من اعجب المحاريب الاسلامية حسنا وغرابة صنعة يتقدمها كلها وقد قامت في وسطه محاريب صغار متصلة بجداره تحفها سوريات مفتولات مثل الاسورة كأنها مخروطة لم ير شيء اجمل منها وبعضها حمر كأنها مرجان . فشأن قبلة هذا الجامع المبارك مع مايتصل بها من قبابه الثلاث واشراق شمسياته المذهبة الملونة عليه واتصال شعاع الشمس بها وانعكاسه الى كل لون منها حتى ترتمي الى الابصار منه اشعة ملونة يتصل ذلك بجداره القبلي كله عظيم لايلحق وصفه ولا تبلغ العبارة بعض مايتصوره الخاطر منه والله يسمو عنه

وفي الركن الشرقي من المقصورة الحديثة في المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف عثمان (رض) وهو المصحف الذي وجه به الى الشام . وتفتح الخزانة كل يوم اثر الصلاة فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله ويكثر الازدحام عليه

وله أربعة أبواب (باب) قبلي ويعرف بباب الزيادة وله دهليز كبير متسع وله أعمدة عظام وفيه حوانيت للخرزيين وسواهم وله مرأى رائع ومنه يفضي الى دار الطبل وعن يسار الخارج منه مناط الصفارين وهي كانت دار معاوية (رض) وتعرف بالخضراء (وباب) شرقي وهو أعظم الابواب ويعرف بباب جيرون (وباب) غربي ويعرف بباب البريد (وباب) شمالي ويعرف بباب الناطفيين وللشرقي والغربي والشمالي ايضا من هذه الابواب دهاليز متسعة يفضي كل دهليز منها الى باب عظيم كانت كلها مداخل الكنيسة فبقيت على حالها وأعظمها منظراً الدهليز المتصل بباب جيرون يخرج من هذا الباب الى بلاط طويل عريض قد قامت أمامه خمسة أبواب مقسومة لها ستة أعمدة طوال وفي وجه اليسار منه مشهد كبير حفيل كان فيه رأس الحسين بن علي رضي الله عنهما ثم نقل الى القاهرة وبازائه مسجد صغير ينسب لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وبذلك المشهد ماء جار . وقد اتخذت امام البلاط ادراج ينحدر عليها الى الدهليز وهو كالخندق العظيم يتصل الى باب عظيم الارتفاع ينحسر الطرف دونه سموا قد حفته اعمدة كالجزوع طولا وكالاطواد ضخامة وبجانبي هذا الدهليز اعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها الحوانيت

المتخذة للعطارين وسواهم وعليها شوارع أخر مستطيلة فيها المخبز والبيوت فكراه مشرفة على الدهليز وفوقها سطح بيت به سكان المخبز والبيوت

وفي وسط الدهليز حوض كبير مستدير من الرخام عليه قبة تقلها أعمدة من الرخام ويستدير بأعلاها طرة من الرصاص واسعة مكشوفة للهواء لم ينعطف عليها تعتيب وفي وسط الحوض الرخامي انبوب صفر يزعج الماء بقوة فيرتفع الى الهواء ازيد من القامة . . . . . وحوله اثابيب صغار ترمي الماء الى علو فيخرج عنها كقضبان اللجين فكأنها أغصان تلك الدوحة المائية ومنظرها أعجب وأبدع من ان يلحقه الوصف

وعن يمين الخارج من باب جيرون في جدار البلاط الذي أمامه غرفة لماهية طلق كبير مستدير فيه طيقان صفر قد فتحت أبوابا صغارا على عدد ساعات النهار ودبرت تدبيرا هندسيا فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمي بازيين مصورين من صفر قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما . احدهما تحت اول باب من تلك الابواب والثاني تحت آخرها والطاستان مثقوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة وتبصر البازيين يمدان مخلبهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الاوهام سحرا وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوي وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الابواب كلها وتنقضي الساعات ثم تعود الى حالها الاول . ولها بالليل تدبير آخر وذلك ان في القوس المنعطف على تلك الطيقان المذكورة اثني عشرة دائرة من النحاس مخرمة وتعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار مدبر ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة فاذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة امامها شعاعها فلاحت للابصار دائرة محمرة ثم انتقل ذلك الى الاخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها . وقد وكل بها في الغرفة متعهد لحالها دوب بشأنها واتقانها يعيد فتح الابواب وصرف الصنج الى موضعها وهي التي يسمونها الناس المنجانه

ودهليز الباب الغربي فيه حوانيت البقالين والعطارين وفيه سماط لبيع الفواكه وفي اعلاه باب عظيم يصعد اليه على ادراج وله اعمدة سامية في الهواء وتحت الادراج سقايتان مستديرتان سقاية يمينا وسقاية يسارا لكل سقاية خمسة انابيب ترمي الماء في حوض رخام مستطيل . ودهليز الباب الشمالي فيه زوايا على مساطب محدقة بالاعواد المشرجبة هي مخاصر لملاعي الصبيان . وعن يمين الخارج في الدهليز خانقة مبنية للصوفية في وسطها صهريج ويقال انها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه والصهريج الذي في وسطها يجري الماء فيه ولها مظاهر يجري الماء في بيوتها

وعن يمين الخارج ايضا من باب البريد مدرسة الشافعية في وسطها صهريج يجري الماء فيه ولها مظاهر على الصفة المذكورة وفي الصحن بين القباب المذكورة عمودان متباعدان يسيراً لهما رأسان من الصفر مستطيلان مشرجبان قد خرما أحسن تخريم يسرجان ليلة النصف من شعبان فيلوحان كأنهما ثريتان مشتعلتان . واحتفال اهل هذه البلدة لهذه الليلة اكثر من احتفالهم بسبع وعشرين من رمضان المعظم .

آثار علمية عربية

تربية البنات (*)

كم ذا يكابد عاشق ويلاقي　　في حب مصر كثيرة العشاق
اني لأحمل في هواك صبابة　　يامصر قد خرجت عن الاطواق
لطفي عليك متى أراك طليقة　　يحمي كريم حماك شعب راق
وأديب قوم تستحق يمينه　　قطع الانامل أو نطق الاحراق

---

*) قصيدة لشاعر مصر الكبير محمد حافظ ابراهيم انشدها في حفلة اقيمت ببورسعيد لاعانة مدرسة البنات وقد سلك شاعرنا في هذه القصيدة مسلكا في انتقاد الاخلاق والعادات كان من الادلة الكثيرة على تفوق حافظ وعسى ان يجنح الشاعر للتوفر على قرض هذا الاسلوب من الشعر فانه من خير الادوية لادواء الناس